العاطفة والفكرة

في الشعر ومنزلتهما في شعر مطران

للدكتور اسماعيل احمد ادهم

— ٢ —

العاطفة والفكرة

الخيال بطبيعته بارد وجامد . ودخول الانفعال (العاطفة) عليه وامتزاجه به هو الذي ينفخ فيه الحرارة ، ويبث عنصر الحياة والشعور مقترناً في تضاعيفه . ويجعله قادراً على اثارة القارىء وتحريك مشاعره وعواطفه . ومطران تجري في شعره العاطفة . وهو في هذا يقول : « وليس اكثر شعري هذا بين الطرس والمداد الا مدامع ذرفتها وزفرات صعدتها وقطعاً من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فنوهت اني استعدتها » (الديوان — بيان موجز في المقدمة) غير ان العاطفة عند مطران ، وان كانت تجيء من العاطفة التي يحسها ويشعر بها ، الا انها غير موجودة لذاتها في نفس مطران . والخيال وحده هو الذي يثيرها ويحركها . ولا أدل على ذلك من أن مثل الخيال هو الذي يستدعي عند مطران : الألم او الحزن ، والفرح او السرور ، والبغض او الكراهية ، والحب أو الميل ، الشفقة او الرحمة وما الى ذلك من سلسلة العواطف والانفعالات المعروفة ولما كان مثل الخيال محتاجاً الى عنصر الخيال ، وكان الخيال هو مقوم العاطفة عند الخليل ، لذلك كان مجيء العاطفة عند مطران غير واحد فهو أحياناً بارز العاطفة ، وهو في بعض الأحيان الاخرى ينطوي على عاطفة خمدت جذوتها نتيجة تصفية الفكر لها ، فاستحال نارها نوراً وحرارتها ضوءاً . وهذا تباين في درجة العاطفة وشدتها عند مطران : راجع الى مقتضى الحال من جهة والى عمل الخيال وخلخلة الفكر لها من جهة اخرى . والعاطفة التي تثار عند مطران تبين انها في طبيعتها تجيء من مشاعر الحس الداخلية يضرمها عادة الخيال ، وينظمها الفكر . فهو في قصيدة « الماء » (الديوان ١١٩/١٢١) يقول :

١ : داء ألم سببت فيه شقائي من صبوتي فتضاعفت برحائي
٢ : يا قاصرين اعتقادنا في وما لي النظر مثل تحكم الضعفاء
٣ : قلب أذابته الصبابة والجوى وغلالة رثت من الأدواء
٤ : والروح فيها نسيم تهمة في صفي التصويب والصعداء
٥ : والمثل كالصباح يضحي نوره كدري ويصفعه ضوب دمائي
٦ : هذا الذي أبقيته يا منيتي من أصلعي وحشاشتي رذكائي
٧ : عمرين فيك أضعت لو أنصفتني لم يجدوا بتأسفي وبكائي
٨ : عمر الفتى الفاني وعمر خلده بيد لولاك في الاحياء
٩ : فقدوت لم أنعم كذي جهل ولم أفهم كذي عقل ضلال هداء

فأنت تلمس في هذه الأبيات عمل الخيال في اثارة العواطف ، وتداخل الفكر في تنظيم الشاعر فتجيء الأبيات مزيجة الخيال والعاطفة والفكرة . على ان توجيه النظر الى هذا الاتزان ليس غرضنا الأول هنا ، لأن غرضنا ينصبُّ على بيان عاطفة الرجل ووجه مجيئها . ومن هنا يبدأ بيان عمل الخيال في اثارة العاطفة في هذه الابيات

والواقع ان عاطفة مطران في هذه الابيات تتفرق صافية وتتكرر خلال أبيات قصيدة «الماء» عامة بفضائها وتياراتها بوضوح اثارها في نفسه تمثل حاله وهو عليل . استبد به قلبه وجسمه ، فالقلب اذابته الصبابة والجوى والجسم غلالة رثت من الأدواء (القصيدة ٣:) ومن هنا تحركت في نفسه مشاعر الألم والحزن ، فكان محاولته ، التنفيس عن روحه التي تمثلت له أمرها ، ومن هنا ، انساق الشاعر عن طريق تمثل الخيال — والتمثل من عمل الخيال والفكر منظم التيارات العاطفية التي تنساب في وجدان الشاعر — الى المطابقة بين حاله وبين حال الطبيعة القائمة أمامه فقال:

٨ : اني أنت على الصحة بالمنى في غربة قالوا تكون دوائي
٩ : ان يشف هذا الجسم طيب هوائها أيطيب الجنان حيث هواء
١٠ : او تملك الحوباء أحسن مقامها هل مكة في البيد الحرباء
١١ : عيت طوافي في البلاد وطالما في غير مغناي لاستشفاء
١٢ : متفرد بصبابتي . . . . . (انظر البقية بالقصيدة نفسها : الابيات ٢٢ — ٢٨)

وأنت لا تخطيء الدليل على صحة ما تقول في هذه الابيات التي نقلناها لك وما يجيء بعدها في القصيدة

والعاطفة كعنصر أساسي في الشاعرية تظهر في موسيقى المعاني والمبادىء الشعورية في القصيدة ومجيئها مثارة من قبل الخيال عند مطران (وعمل الخيال بظهور التجريد abstraction) لهذا نجد العاطفة تتجرد عن المحيط الذي هي فيه وتأخذ وضعاً مستقلاً في النفس يمكنها منها على الخارج الشاعر ولهذا تلمس العواطف عند مطران منسحبة الى الخارج ، ولا أدل على ذلك من قوله في قصيدة «الماء»

٣٥ : وخواطري تبدو نجاء نواظري كلي كذاتية الضحى اوزاني

في هذا البيت تمثل الخواطر مجردة عن كل الوجدان ، منفصلة وكأنها سمكة من نوحة نفسية ولكنها موضوعية ازاء الشاعر . والعاطفة المتشبثة في قصيدة « لقاء » عاطفة الألم ، وهي تنتهي (تقريباً) الى حالة يأس من احتمال الشفاء للروح والجسد من الداء الذي ألم بهما . وأنت تجد ذبذبات الشعور في هذه القصيدة — وهي نموذج اخترناه هنا لباقي شعر الخليل — صادرة من أعماق الشاعر ، تثيرها مشاعر الحس الباطنية ، ولا تهيجها مشاعر الحس الخارجية ، ولا أدل على ذلك من ملاحظة ذبذبة التيارات العاطفية التي تنساب في تضاعيف القصيدة والمرتبطة بموسيقى المعاني التي بها[1] وهذه الذبذبات والتيارات تجري في القصيدة على هذا الوجه :

داء ألم « حسبت فيه شفائي من صبري » فتضاعفت برحائي
يا لتعييني « اصطبر لي » وما في الظن مثل تحكم الضعفاء
نفس « أذابته الصبابة والجوى » « وغلالة رثت من الأعضاء »
والروح « ينهبها سقيم نهوده » بين : التصوب والصعداء

وأوضح ما تكون هذه الذبذبات والتيارات في انشاد الشاعر لشعره بداءته (البحث الأول : خاتمة الفقرة الأولى) . وما كان الانشاد غير الالقاء . فان طريقة الانشاد تظهر في وجه ترنم الشاعر بشعره . ومن هنا كان من الصعوبة بمكان ، اذا لم يستمع الناقد بنفسه الى ترنم الشاعر بشعره ، ان يدلي برأي نهائي في حقيقة تيارات الشعور والعاطفة التي تنشى في تضاعيف شعره . على انهُ بعد ذلك في الامكان — كما يقول كرپنسكي[2] — الانتهاء برأي في هذا الموضوع بملاحظة : درجات الابتداء والانتهاء ، والوصل والفصل ، والشدة والتراخي والارتفاع والانخفاض ، والتماسك والتخلخل ، — في موسيقية القصيدة

هذا وفي المستطاع فهم عاطفة الشاعر ، وهل هي مثارة من قبل مشاعر الحس الخارجية (كالغرائز مثلاً) أم من مشاعر الحس الباطنية (كالعواطف الراقية) بملاحظة ذبذبات الموسيقى وهل هي آتية من قبل مشاعر الحس الخارجي ، والتي تكون في تلك الحالة بواحدة الضرب (التوقيع) بملاحقة الذبذبات . بينما تكون متنوعة غير متلاحقة الذبذبات في مشاعر الحس الباطني . والواقع انهُ في الامكان — بمراجعة القواعد النفسية التي وضعها شاند ولكدوغل ومونلر وودورث[3] — وضع حد فاصل بين مشاعر الحس الباطني ومشاعر الحس الخارجي ، وذلك

(١) انظر توضيح هذا عند B. Croce : بندتو كروتشي في كتابه « فلسفة الجمال » Estetica ١٩١٢ الفصل ١٧ ص ١٦٥ وما بعده

(٢) Ignatz Karpinsky في موسيقية الشعر العربي ودلالاته النفسية — مجلة المعهد الملكي للدراسات الاسلامية — م ٣ (١٩٣٤) ص ٣١١ — ٣٢

(٣) وودورث : دروس في علم النفس — القاهرة ١٩٢٩ ص ١٦٥

على اساس اعتبار الاولى عواطف خاصة (مركبة) بينما الثانية عواطف عامة (بسيطة)

وبملاحظة عاطفة مطران من هذه الوجهة من النظر تبين انها تجيء في مشاعر الحس الباطني (Interne) ومن هذا كانت عواطفه ذاتية . فمطران يظهر مثلاً في قصيدة « انساه » بشعور مركب ، تتداخل في تكوينه عواطف الحزن والألم ، والخوف ، والهيام ، ومن هنا يمكن القول بأن اثارة عاطفة مطران تحتاج الى مؤثرات متعددة مرتبطة بعضها ببعض تقدر كل واحدة على اثارة عاطفة أساسية ، وباجتماعها بعضها مع بعض في تركيب معين ، تتولد عاطفة معقدة يظهر بها مطران طارياً أيضاً في شعره . ولهذا نجد ان عاطفة الحب مثلاً عند مطران لا تثيرها الغريزة الجنسية . وان كانت تدخل كعنصر عاطفي اساسي فيها ، وانما يثيرها مجموعة مركبة من العواطف من بينها عواطف الاعجاب والسرور والحنو والحب (بمعناه الحسي) . فأنت ترى مطران في « حكاية عاشقين » تظهر له محبوبته « الكل عين فيها معنى تباح له النفوس ، ولكن لا يرام » (ليلة سعد : الديوان ٢٢٤) ولأن نظرته غير حسية تراه يقول :

٢٥ : يا هند ان زال منك الجمال فحسب امنى قلبك الطاهر

٢٦ : وان بان منك عن ناظري فان الفؤاد له ناظر (أشعة وتجلي ٦٨ ، ١٦٩)

اما وقد لاحظنا ان عاطفة مطران تجيء من مشاعر الحس الباطني[1] فيهمنا ان ننظر في هذه العاطفة من حيث تركيبها . ومن الملاحظ ان جميع عواطف الحس الباطني[2] عواطف مركبة يمكن تحليلها . ومن هنا نو نظرنا الى العاطفة المتولية على « ليلى » في قصة الحزين « الشهيد » (الديوان ٢١٦/٢٠٨) وهي تناجي نفسها وحبيبها اذ هي على وشك اسعافه ، نجد عاطفتين مركبتين : الاولى عاطفة الوجد وهي مؤلفة من عواطف : الحزن والغضب ، الاشمئزاز والحب والاخرى عاطفة الحقد : وهي مؤلفة من عاطفتي : الكره (الخوف + الغضب) والألم . فهي حزينة لما آل اليه حالها ولما ينتهي اليه حبها ، وهي غاضبة على « حبيل » الذي غدر بها حق سقطت وهي مشمئزة من فعلته وخديعته لها ، وهي الى هذا تشعر بالحب له (بالمعنى الحسي) . فضلاً عن كونها حاقدة ، من حيث تألم وتضاف عواقب فعلتها . وجميع هذه العواطف تداخلت وكان منها مركب ، هو المتولي على نفسية « ليلى » في مناجاتها لنفسها . كذلك العاطفة المتولية على بنت الملك « في قصة فنجان قهوة » (الديوان ١٢٣/١٢٨) وهي في ذهابها للاقاة حبيبها (الابيات ٦٩ — ٧٩ ، تجدها في الفترة الاولى من هذا البحث) ، تجدها مع التحليل عاطفة مركبة يتداخل فيها : القلق (الحب + الخوف) . وهذا واضح في قول مطران

---

(١) Benedetto Croce في Esthetique ١٩١٢ ص ٢١ وما بعده عن مشاعر الحس الباطني ومشاعر الحس الخارجي ويمكن ان يقال من وجهة نظر خاصة : ان مشاعر الحس الخارجي لا تخرج عن رد فعل حسي للمواضيع الخارجية التي تكتنف الانسان في الحياة ، وهي من هنا تنتقل حالة بدائية من الشعور

(٢) فضلنا لفظة الباطني عن الداخلي لان في لفظة الباطن غلبة للجانب العضوي عن الحسي بكسر الحاء . لفظة الداخل

٧١: تتثنى في أثوابها السوداء مثل قضيب فضي من الفضة
٧٢: طوراً تقبل وتارة تتقز وفؤادها متقزع متطسر
٧٣: وتكاد ان لمحت اشارة نور تنحل مثل غيهب الديجور
٧٤: لكن ذاك الخوف لم يتجرد من لذة الشيء الذي لم يشتهِ
٧٥: ورجاء نور مقبل وأمان وسعادة يأتيها في آن

كما وانهُ يتداخل فيها التطير (الفزع + الخوف + النفس) ، وكل هذا واضح في الأبيات التي نقتناها مما لا يحتاج الى بيان

على ان هذه العواطف المركبة ، لا يكفي ان تكون مستثارة من قبل مشاعر الحس الباطني للحكم برقيها وجمالها وانما يجب ان تكون منتهية الى غرض انساني Humanitarian والواقع انهُ كما قلنا في دراستنا للعاطفة عند ابو شادي (في الدراسة الانكليزية التي وضعناها عنهُ) ، أن قيمة العاطفة والحكم برقيها تابع للغرض الذي تنتهي عنده. ويجب ألا يغرنا في الحكم على العواطف الماثلة ، مجيئها ، وانما يجب النظر الى الغرض الذي تنتهي اليه للحكم عليها . ومن هنا يمكن القول بأن العواطف تجيء راقية الى غرض نبيل عند مطران . وان كانت في حد ذاتها عواطف هازلة ، كما هو الحال في قصيدة « الجنين الشهيد »

وقيمة العاطفة وقف : اولاً على عمقها، وثانياً على سعتها، وثالثاً على غناها . اما عن الوجه الأول فعاطفة مطران تمتاز بصفة العمق ، ويكفي انها آتية من قبل مشاعر الحس الباطني للحكم على عمق معناها في الوجدان . واما عن اتساعها فهي تذهب الى أبعد الحدود معبرة عن الشعور الانساني (في اقسط المشترك بين الناس) . واما عن غناها فهذا ظاهر في عاطفة مطران في التنوع الذي تجيء به العاطفة عنده . فمطران تخرج من شعره ، بجميع العواطف البشرية الراقية ويدخل طبعاً فيها جميع العواطف الأساسية المستثارة من مشاعر الحس الخارجي . وقصيدة « الجنين الشهيد » داخلة فيها على وجه التقريب مجموعة متعددة من العواطف البشرية الراقية وفي الأمثلة التي ذكرناها من قبل — على قلتها — ما يؤكد هذه الفكرة عن العاطفة عند مطران[1]

***

لما كانت عاطفة مطران مثارة من مشاعر الحس الباطنية بضربها عادة الخيال ، فان العاطفة تجيء عادة صادقة معبرة عن احساس بها . ولكن لكي تثور العاطفة لابد لهُ من ان يمثل الحالة التي يوحيها الخيال في ذهنه ، فتحرك في نفسه المشاعر وتستولي عليه الاحاسيس والعواطف فاذا تمثل الخيال ، ولم يثر هذا التمثل في نفسه شعوراً ، نجد شعر مطران يجيء من عمل الخيال والفكر ، عليه سمة فتور ، كما هو الحال في شعره المتأخر . والواقع ان لهذا سبباً واضحاً هو

(١) ارتباط العاطفة بفكرة الجمال (البديع) Aesthetics سيجيء بيانها بعد

نضوب معين العاطفة . فالعواطف الراقية التي تستثار من الداخل ، لجيشها من مشاعر الحس الباطني ، تمض حتى ليعجز المرء عن جعلها فيّاضة بالعواطف . ولهذا نجد ان مطران كبقية الشعراء المعبرين عن عاطفة داخلية ، انتهى عند حد من عمره ، نضبت معهُ عاطفته ، وهو في هذا على العكس من شوقي وهو من الشعراء المعبرين عن عاطفة خارجية ، فقد بقي حتى اللحظة الأخيرة قوي العاطفة ظاهرها . وذلك لان عاطفته مستثارة من مشاعر الحس الخارجية وهي تليه وتبقى نشطة طالما تجري الحياة في شرايين الانسان . على ان نضوب العاطفة اخيراً في شعر مطران (انظر مثلاً قصيدته في وداع سنة ١٩٣٩ وتحية ١٩٤٠ بالسياسة الاسبوعية ، السنة السادسة (العدد ١٥٤) ١٣ يناير ١٩٤٠ ص ١٨) ، وعدم مجيئها في بعض قصائده المتقدمة — (وهي عادة التي تجيء من الوصف او المناسبات) يجب ألا تؤخذ دليلاً على أن مطران لا ينطق في شعره عن عاطفة صادقة كما توهم البعض ، لانهُ لو كان ينطق عن عواطف غير صادقة لا يحسها ، لكان في مستطاعه ان يجيء بها في كل شعره ، فلا يتبان شعره من ناحية العاطفة هذا التباين الواضح الذي لمسناه فيه

هذا وما في بعض شعره الذي جاء من باب المناسبات من العواطف ، يعود بأصل الى المشاعر الاجتماعية التي كانت مستولية على الخليل ، ودراستها من هذا الجانب تمكن الباحث من الخلوص بحقيقة صلات مطران بالناس في المجتمع المصري ومنها انهُ كان صادق العاطفة في ما عبر عنهُ ومن هنا كان حكمنا عليه بأنهُ انسان اجتماعي ، يميل للعاشرة وإنشاء صلات مع الناس ، وللبحث في دوافع نفسه التي تجعله يهرب من نفسه الى الناس ، بعض ما يفسر هذا . والواقع أن تعبير مطران عن العواطف الاجتماعية واضح في شعره ، فهو انسان يشارك الناس أفراحهم وآلامهم ، مسراتهم واحزانهم ، فتجده مهنأهم يتمنى دوام الفرح والمسرة في افراحهم ، مواسياً في الملمات التي تنزل بهم . ومن هنا نجد ان قسطاً غير قليل من شعره يجيء من هذا الاصل وهو الذي يدخل في باب المناسبات ، على أن في بعض هذه القصائد عواطف شخصية ، كان خيراً لو لم يضمنها الخليل شعره وهي في الواقع موضع الضعف الملحوظ في دراسة عاطفته الشعرية . وقد نال منهُ الناقدون من هذه النقطة وغمزوا شعره (روكس زايد العزيزي : المجلة الجديدة — السنة السادسة العدد الخامس مايو ١٩٣٧ ص ٣٦/٣٨)

***

العاطفة مثارة من قبل الخيال والفكر يدخل عليها ليعنيها ويزينها . ومن هنا كانت العاطفة مسيرة عند الخليل بواسطة الفكر . ودخول الفكر عليها هو الذي يعطيها الثبات . فأنت تقرأ له القصيدة ، فتجد عاطفة واحدة مستولية عليها ، على أن العاطفة إن تغيرت ، فذلك للنزول على

مقتضى الحال الذي يتطلب تغييرها . والواقع أن هذا أمر مشهود في شعر الخليل ، فأنت ترى عاطفة واحدة مستولية على قصيدة « النساء » ، بينما قد استولت على قصيدة « أخي الشهيد » عواطف متعددة تتصارع . وتعدد هذه العواطف وتصارعها طبعي للغاية ، ولما يقتضيه الحال ، ولهذا لا يمكن أن تؤخذ دليلاً على عدم ثبات العاطفة عند مطران والواقع أنه في هذا على العكس تماماً من الدكتور احمد زكي ابو شادي ، الذي تتموج عنده العاطفة وتتموج معها الصور ، وذلك على الرغم من ان تداخل الفكر الأدبي — المجلد الأول — الكتاب الثاني ص ٣٠٠ [1] وثبات العاطفة عند مطران مسألة لا يُنازع في امرها ، وهي تجيء نتيجة لاحكام الفكر وضبط خلجات الشعور ونبضات القلب على ان العاطفة ان فقدت نتيجة لتداخل عنصر الفكر ، قوة البروز والظهور عند مطران ، ففي الواقع تكتسب على حساب ذلك ميزة اخرى ، هي ميزة الصفاء

وملاحظة انفعالات مطران العاطفية تبين أنها في العموم تجيء مستثارة بعناصر الفواجع والمآسي في الأشياء . وهذا نتيجة الأهل التشاؤمي في طبيعته . ولهذا تجد اقوى العواطف بروزاً في شعر خليل ، هي العواطف المستثارة من آلام الحياة وأحزانها . ولعل في هذا بعض السر في إقبال مطران على ترجمة آثار وبيم شكسبير الى العربية منفعلاً بتعبير المآساة التي فيها .

— ٣ —

قلنا ان الفكر عنصر اساسي هام في تكوين شاعريته . وقد يكون العنصر الثاني المتميز في شاعريته ، والفكر عند مطران منظم الخيال من جهة ، ومسير العاطفة من جهة اخرى . وقد أدرك هذا انطون الجميل بك فقال « فقد أصاب قدماء اليونان اذ صوروا الشاعر في مركبة يقودها جوادان جامحان ، وهما الخيال والشعور . وجعلوا زمامها في يد العقل ، فلا يطوّحان بالشاعر الى الهاوية . وقد رأينا في شعر خليل مطران عمل القوتين الاساسيتين في الشعر ، وهما الخيال والعاطفة . وهما قوتان قد تشردان اذا لم يكن هناك قوة ثالثة ، وهي العقل تخفف من غلوائهما [2] » وقد تناول الجميل بك أثر القوة العاقلة في تكوين شاعرية مطران ، غير انه وقف من البحث عند الاشارة ، ولم يعدُ ذلك الى التحليل ، وتلمس عمل العقل في ضبط العلاقات بين العاطفة والخيال المتداخلين في تكوين شاعرية مطران . والواقع ان القارىء ربما لاحظ فيما سبق ، تفسير دخول عنصر القوة العاقلة في تكوين شاعرية مطران وضبطها العلاقات بين الخيال والعاطفة . لأنه كما قلنا في التوطئة أن لا العاطفة ولا الخيال توجدان في حالة مستقلة إحداهما عن الأخرى وعن الفكرة ولهذا نضرب الى كلامنا على خيال مطران وعاطفته بعض الكلام عن

(١) أنظر توضيح هذا في دراستنا عن Abu Shadi ، طبع ليدن ١٩٣٧

(٢) الهلال — يونيه ١٩٠٨ ص ٦٣٥ — ٣٧

فكره ، وعمله في تكوين شاعريته . والواقع ان الاتزان المشهود في معظم شعر الخليل من الناحية الشعرية يعود بأصل الى عمل القوة العاقلة أو الفكر . والعقل يدخل في تكوين شاعرية مطران في ضبط النسب والعلاقات بين مختلف المشاعر والعواطف التي تستولي على النفس ، فلا تطغى عاطفة على الأخرى . كما أنها تدخل في إنشاء النسب بين الصور المتمثلة في الذهن فلا تطغى الألوان والخطوط بعضها على بعض ، ومن هنا تخرج العاطفة صافية والخيال واضحاً

على أنه بعد ذلك يمكنك ان تلمس بعض الفكرات مستولية على شعر مطران . فشعره لا يجيء خيالاً وعاطفة فحسب ، وانما يجيء ، خيالاً وعاطفة وفكرة . والقوة العاقلة لا تظهر آثارها في شاعرية مطران في إنشاء التوازن فقط ، فهذا عمل داخلي ، في تكوين الشاعرية . وانما تظهر في نبضها بالمعاني والفكر وادماجها في الشعر . وهذا واضح في جل شعر مطران فهو في قصيدة « تشريف كتاب مرآة الايام باسم الجناب العالي عباس حلمي الثاني » (الديوان ٢٦٦ / ٢٦٧) استخلص عبرة التاريخ كله من دراسته لها ، فضمنها قصيدته الى خديوي مصر ، وفيها يقول :

١٦ : يقص حديث الكون منذ ابتدائه وما أخلفت احداثه والنجارب
١٧ : وتمثيل أجيال الورى فيه بادياً خوافيها لدى من يراقب
١٨ : هنالك أقوام تجيء وتنقضي وتقبعها أطوارها والمذاهب
١٩ : عمائك تبنى بالصوارم والقنا وتهدمها أوزارها والمعايب
٢٠ : غرائب أديان وجنس ومشرب وخلق وأخلاق تليها غرائب
٢١ : تمر ونور النقد يبدي خفيها سراعاً كما مرت ببدر سحائب
٢٢ : ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتاً نبت عنه آفات البلى والمعاطب

فالدليل على عمل القوة العاقلة ، في تكوين هذه الأبيات ناهض بيّن . ففيها خلوص بعبرة التاريخ على أساس اجالة النظر في سيره ، وهذه العبرة تتلخص في « ثبات الفضيلة » على الارض

هذا وظهور عمل القوة العاقلة في تكوين شاعرية مطران ، واضح في تسييره عاطفته النازلة نحو غرض نبيل . فهو في قصيدة « الجنين الشهيد » يصور تلك الرذيلة ، ويحرك النفس بتصويره فتشمئز منها . ألا تراه يقول مختتماً هذه الرائعة :

رأت شهب الظلماء منهد طفلها لئن اسقطت منها الجنين بسهما
فلم تسامحه مضيات لطخها وأشرب نور الشمس من دم اثمها
كما يلمع الضاري الدماء ويستحلي
على ان نيل بعد عام تصرماً سلت في الملاقي أمرها المتقدما
وطاق جبل ناعم البال مكرماً كأنهما لم يستبيحا حرما
وما عوقبت غير الطهارة والطفل (الجنين الشهيد الديوان ٢١٨)

وعلى الرغم مما تلمسه في هذه الأبيات من غلبة نظرة التشاؤم الى الانسان وأخلاقه فان هذه النظرة جزئية تتعلق بحالة خاصة يصورها هنا الشاعر ، اما نظرة الشاعر العامة تتلخص

في الايمان بثبات الفضيلة . وقد يكون من المناسب هنا ان نعد الى اظهار الخطوط العامة للفكرات المنثورة على شعر الخليل . والواقع أن في هذه الخطوط تكمن فلسفة الخليل في شعره

لكل انسان في العالم فلسفته الخاصة . ولهذه الفلسفة تظهر في منطق فهم الانسان للحياة ، وهي من هنا تفترق عن الفلسفة الرسمية في ان الاخيرة يبرز فيها عنصر التنظيم العام للحياة الكلية . ومن هنا لا تناقض بين قولنا ان لمطران فلسفة خاصة وبين انكار الفلسفة الرسمية عليه . وربما كان مثل كلمات بندتو كروتشي — الفيلسوف الناقد الايطالي[1] عن الفرق بين فلسفة شاعر وفلسفة فيلسوف هي الحدّ الفاصل في هذا الموضوع . فلسفة الفيلسوف تنفذ من خلال جزئيات الاشياء الى الفكرة العامة المستترة وراءها بينما فلسفة الشاعر تغوص في عالم الجزئيات[2] . وهذا ان كان صحيحاً الى حدّ كبير ، فملاحظة الشاعر وهو غائص في عالم الجزئيات تبين ان صحة هذا الكلام ظاهرية ، لان الشاعر في غوصه في عالم الجزئيات ، سيزلها كإنسان له وحدته النفسية ، بكليات تنتظم منها الجزئيات على أساس نفسي ، ومن هنا تلتقي الفلسفة والشعر في نفس الشاعر الداخلية . على أنهُ بعد ذلك لو لوحظ أن هذا الالتقاء ينبع من وحدة النفس فانهُ يكون لكلمات — كروتشي — قيمتها الكبيرة من جهة ملاحظة تفرعها

وفلسفة مطران ، في أسسها فلسفة مسيحية منتظمة ، تظهر واضحة في شعره . وتعود بأصل الى فلاسفة النصرانية في القرون الوسطى ، فأنت ترى في شعره ، خلجات الفكر المسيحي في تلك العصور ، ويظهر مطران في فلسفته طبيعيًّا لانها لا تجيء شاذة من قبل مظالماته وانما من طبيعته الشخصية ، وأبرز ما يكون ذلك في تصوره الخلق creation مثلاً (تصوراً ذهنيًّا) . فهو يقول في قصيدته « الورد ثان » (الديوان ٣٥/٣٧) :

١ : تبـــارك الله فهو لما أراد ان يبدع الكائنات
٢ : أبدأه فكره ولما يقل لما شاء كن فكان

٣ : بناه ذا العالم العظيم لفظاً لفكره تصوره
٤ : الشمس والارض والنجوم من مظلمـــات ومبصره
٥ : كأحرف سفرها الرقيم مدهمة او محبره

٦ : جميعها اسم وهو المسمى في سعة الخلق والزمان
٧ : وكل حرف سوى له اسما يضيق عن ضمه المكان

(١) Estetica - Come Scienza dell' Espressione e linguistica generale ج B. Croce Bari 1912. III, Parte e la Filosofia p. 27 et suiv وأنظر لخبصاً عربياً للرأي في مقال لي أدمج في المقتطف ٩٣ : ٤١١/٤١٢

وأنت لاتخطىء ، الأصل المثالي idealism في فكرة مطران ، فهو يرى الفكر (الالهي) هو الأصل ، او المثال الذي تنعكس منهُ الموجودات ، فهذا الوجود ليس اكثر من لغة لفكرة تصورها الخالق (تمثلها في ذهنه) ، ومن هنا فهي جميعها ألفاظ لاتعبر عن غير حقيقة واحدة ، هي حقيقة الفكر الالهي ، الذي وراءها ، أما في ذاتها الخارجية ، فهي مجرد أسماء او ألفاظ ، اصفها الناس بها

والواقع ان مطران في هذه الابيات التي نقلناها لك يظهر من الاسميين Nominalists والاساس في هذا المذهب أن الانسان حين يتصوّر الاشياء ويمثلها في ذهنه ، فهو لا يتعامل بغير اشارة او رمز symbol او بتعبير أدق لايتعامل بغير اسماء يخلعها على الأشياء التي تقع تحت الحس ولا شك أن خليل مطران انتهى الى هذه الفكرة نتيجة لغلبة الأصل الخيالي في نفسه ، وهو الاصل الذي تنبع منهُ بقية الملكات عن طريق التمثل في الذهن

ومن هنا رأى مطران التمثل الذهني هو الحقيقة وأما عداها مما يقع تحت الحس ، فهو مجرد اسماء

وعلى هذا الأساس تصور مطران الله فكراً على أساس من طبيعة فكره ، ومطران في هذا الاتجاه ، واضح عنده عملية تزويده الله بالصفات البشرية تلك الصفات التي تعرف اصطلاحيًا بالناسوتية — Anthropomorphism — (عن اسماعيل مظهر)

وقد انساق مطران الى ان المسمى الذي في الوجود ، هو الله ، وتصور الله فكرة ، اما الاسماء فهي الكائنات . ومن هنا كانت عملية الخلق عنده عملية تمثل ذهني ، فاض بصوره ، فكان العالم

على أنهُ في الامكان ، اتخاذ هذه الفكرة ، أساساً للتوسع في مبحث المعرفة عند مطران ولنظريات ما وراء الطبيعة في شعره . على ان هذا التوسع يكون غير مأمون في نتائجه النهائية ، لأن مطران ، لم يكن في تفكيره هذا معبراً عن فلسفة فكرية تمثلت بجميع دقائقها في ذهنه فأدركها ، وانما كانت اتجاهاً ينبع من طبيعته ، فهي من هنا ، لا يجب الرجوع بها الى الاصول الفلسفية عند روسلين Roscelin وأبيلارد Abelard ، وان ذكرتنا بها في عمومها [1]

[هذا البحث تتمة]

(١) ليكنور كوزين : منتخبات من الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى ، الفصل الثالث و Kuno Fischer في Geschichte der Neuern Philosophie هيدلبرج ١٨٩٧ — المجلد الاول — « فلسفة القرون الوسطى »